Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعريف بالكتاب

ولد وليام سدنى بورتر فى سنة ١٨٦٢ وتوفى فى سنة ١٩١٠ عن ثمان وأربعين سنة .

تاريخه يغرى الناقد المولع بالتقسيم أن يقيم الفواصل بينه وبين مدارس عدة من أتباع المذاهب الحديثة .

فهنـــاك اغراء بحسبانه من الجيل القديم لأنه متقدم على ابتداء الحرب العالمية الأولى وانتهائها .

وهناك اغراء آخر بحسبانه من السابقين « غير العصريين » لأن اقاصيصه ونوادره خلت من مصطلحات علم النفس فى المسائل الجنسية على التخصيص .

واغراء آخر غير هـــذا وذاك قد يغرى الناقد باخراجه من عداد الكتاب « الهادفين » ممن يؤيدون جانب اليمين أو جانب اليسار فى مشـــكلات المجتمع الحديث ، لأنه لم يحضر عهد النازية والفاشية والشيوعية وعهود الحـــكام بأمرهم على الاجمـال ، ولم يقصـــد ــ بالبداهة ــ أن يروج مذهبا الى هذا الجانب أو يخذل مذهبا الى جانب آخر ، ولم يكن له هدف من الدعاية معلوم بين أصحاب هـــذه الأهـــداف .

كل هـــذه « الفواصل » صالحة لابعاد « أوهنرى » عن العصر الحاضر بعنوان من العناوين .

ولكن هذه الفواصل كلها لا ترتفع الى القمة ولا تغوص الى القرار وراء السطوح والأسماء ، فلو استطاع « صفاف حروف » بارع أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبذر بين سطوره كلمات من فرويد ويونج ، وكلمات أخرى من مبادىء النازية أو الشيوعية ، وكلمات غير هذه وتلك عن الصواريخ والسياحات الفضائية ، لما استطاع الناقد الحصيف أن يفرق بين أقدم نوادره وبين أحدث النوادر التى تمتلىء بهـــا اليوم أحدث الصحف من مطبوعات العام الحادى والستين .

ان نوادره عن ضحايا المجتمع تصلح لخمسة كتاب أو ستة يتخذها كل منهم زادا للترويج بدعايته الى هدف من الأهداف .

وان نوادره عن الساسة والحكومات فى الأمريكتين لا تدع جانبا من جوانب الديمقراطية أو الحكم المطلق ولا من جوانب الاستغلال السياسى كيفما كان ــ لم تكشف عنـــه على أسلوب يغبطه عليه كتاب القصة السياسية أو القصة الاجتماعية .

وليس بين أبطاله وبطلاته من يلقاه فرويد ولا يفتح له باب العيادة على مصراعيه ليشرح « نظرية » من نظريات العقد والمركبات .

فالرجل فى موسمه الآن كما كان فى موسمه عنـــد نهاية القرن التاسع عشر أو عند بداية القرن العشرين ، لأنه ينقل عن « الطبيعة » التى لا تختفى تحت عنوان من العناوين ، ولأنه كان يستطيع أن يكتفى بنموذج الطبيعـــة كلما روى عن شخصه وعن البيئة التى تقلب فيها ولم يبتعد منها طوال حيـــاته ، اذ كان أبطال أوهنرى وبطلاته جميعا هم جمهرة المغامرين والمتشردين الناجحين وغير الناجحين ، فمن لم يكن مغامرا بينهم وبينهن فقـد عاش أو عاشت يدا الى فم رزقنا كفافنا يوما بعـــد يوم ... منهم الباعة الجوالون وبائعات الدكاكين ، ومنهم الأفاقون المحتالون وأصحاب الملايين البارزون ، ومنهم من يظلم المجتمع أو يظلمه المجتمع أو يظلم نفســه باختياره ، ولا يبالى أن يعرف مكانه « القانونى » باصطلاح الساسة والاجتماعيين .

ولقد عرف هؤلاء جميعا بعمله ومعيشته وحسن حظه وسوء حظه على السواء ، لأنه كان ــ من سوء حظه وحسن حظه معا ــ أنه عاش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين السجناء ثلاث سنوات ، وتلك توفيقة من توفيقات الحظ الحسن للمؤلف الذى يكتب عن المتشردين وطرداء القانون وظلمة المجتمع وضحايا ظلمه ، وشاء له القدر أن يدخل السجن مظلوما وان يكون هو مسئولا قبل غيره عما لحقه من الظلم والاتهام الكاذب ، فقد جار عليه رؤساء مصرف كان يعمل فيه فاتهموه بالاختلاس والتبديد ، وأشفق هو من تسليم نفسه عند توجيه التهمة اليه فهرب وتوارى وكان هروبه وتواريه من قرائن الادانة عليه ، ثم روجعت وقائع التهم فثبت منها أن بعض السرقات التى اتهم بها لم تحدث الا بعد خروجه من المصرف ، ولكنه كان قد أمضى ثلاث سنوات فى السجن وهو لا يدرى كيف يدفع النسبة عنه ، فذاق من مرارة الحياة كل ما ذاقه أبطاله وبطلاته باستحقاق وبغير استحقاق ... وذاق معهم كذلك كل ما ذاقوه من حلاوة العيش الطليق والعيش المسئول وغير المسئول .. فاذا فاته عنوان مدرسة أدبية يضعه فيها النقاد والمصنفون . فالبضاعة التى تعمر الخزائن جميعا لا تفوته أبدا حيث تستغنى عن العناوين و « الماركات » ومصدره الذى ينقل عنه هو مصدر الطبيعة الخالدة تعمر رفوف الأجداد كما تعمر أدراج الأحفاد .

على أن النقاد أصحاب الولع بالتصنيف والتقسيم لا يريدون أن يتركوا هذا الكاتب « المطبوع » قبل أن يفصلوا بينه وبين الطبيعة الحاضرة بفاصل من فواصل الصناعة أو فاصل من فواصل العناوين الفنية .

وعندهم أن « أوهنرى » قديم لأنه يتكلف « الخواتيم » المحكمة فى جملة نوادره القصار ، ويحسبون أن الخاتمة المحكمة مصطنعة متكلفة على أية حال ، لأن حوادث الحياة اليومية لا تنتهى تلك النهاية المنتظمة فى جميع « الظروف » .

والواقع أن نوادر «أوهنرى» محكمة الخواتيم فى ايجازه واسهابه عند الاستطراد مع النادرة الصغيرة الى السلسلة المتتابعة ، ولكنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يحكم الخواتيم وحـــدها دون المطالع والبدايات ، وقد سرد بعض المعجبين به أمثلة من أوائل قصصه يقل مثيلها بين قصص الفحول فى براعة الاستهلال . وربما باعد ذلك بينها وبين السياق « الطبيعى » على رأى المحـــدثين دعاة مدرسة « العفو وقلة المبالاة » ... ولكننا نعتقد أن الكاتب المقتدر على حسن الاستهلال وحسن الختام « يتكلف » اذا اجتنب القصة المحبوكة الأطراف ليقال أنه مسترسل مطبوع ، وأنه اذا عمد الى الحادثة الطبيعيـــة وأحسن بدايتها وختامها فذلك اتقان فى الصناعة لا يخل بصدق الطبيعة ولا بصدق التمثيل لحقائق الحياة فان القافية المحكمة فى موضعها لا تقدح فى طبع الشاعر ولا فى عبقريته الصادقة ، ولـكنها قدرة فنية يعجز عنها غيره ولا يطالب هو بمجاراة العجزة فيما يقدر عليه .

والظاهر أن هذه الملاحظة عن خواتيم الكاتب ومطالعه قد بولغ فيها كثيرا بعد شيوع أسلوب « العفو وقلة المبالاة » بين الحربين العالميتين .

فان المبالاة بالقواعد والمبادىء والأسانيد قد أصبحت بين الحربين العالميتين علامة من علامات « الجمود والجهل بالواقع » فى رأى المحدثين الذين شاع بينهم الشك فى كل قيمة أدبية وكل قيمة اجتماعية وكل قيمة متفق عليهـــا ، وخيل اليهم أن أحـــدهم يعرض نفسه للاتهام بالرجعيـــة اذا دان بقاعدة أو أظهر الحماسة لفكرة ، أو كشف عن اهتمامه بقضية كانت قبل عصره من قضايا الاعتقاد والايمان ، فهو « يتشاءب » عمدا فى كتابتـــه ليوصف بالسآمة ويقال عنه أنه لا يتكلف للأدب ولا للمعيشة ولا لأمر من أمور الدنيا والدين .

وفى جو كهذا الجو السائم الملول لا ينتظر الاعجاب بالدقة فى المطالع والخواتيم ولا بالقصة التى تمثل الحياة ، ولا بالدقة فى الحياة كلها ، ما دام الشعار الغالب على الأحياء أنهم يعيشون ولا يكترثون لما كان أو لما سيكون .

ولولا أن هذا « الجو » قد أعقب الجو « المكترث » جدا قبل الحرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالميـــة الأولى لكان الالتفات الى دقة « أوهنرى » أهون من ذلك اثرا فى نقده والحكم عليه بالقدم وقول القائلين أنهم يعرضون عنه لأنه من أصحاب « الزى المهجور » .

ان المعجبين بالفنـــــان المطبوع لا يجهلون أن هذا النسج المحكم قد يدمغه بطابع من طوابع المخضرمين بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنه لا يجاوز على تقديرهم أن يكون اطارا مصنوعا حول مرآة صادقة ، يحسبها من شاء حلية من حلى الزمن الذى صيغت فيه ولكن المرآة لا تزال هنالك باقية بصفحتها السليمة ، ينظر فيها الحفيد فيرى ملامحه فى زى جده الكبير .

عباس محمود العقاد